خطبة : يونس عليه السلام

الخطيب: يحيى سليمان العقيلي

معاشر المؤمنين

أحسن القصَص قصَصُ الأنبياءِ والرسل، قال تعالى " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3 يوسف)

وهي أكثر القصصِ في القرآن الكريم، لأخذِ العبر وتقويم المسيرة وتصحيح المفاهيم، ومن قصص الأنبياءِ ، قصةُ نبي الله ذي النون، يونس عليه الصلاة والسلام، فقد ذكر الله لنا هذه القصة في القرآن إشارة أو تفصيلاً في عدة مواضع.

إنه يونسُ بن متى، سماه الله ذا النون، نسبةً الى الحوت الذي إلتقمه ، وهو من أنبياء بني إسرائيل ، عاش في أرض الموصل في العراق، وبعثه الله إلى أهل نينوى، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا لدعوته، وكذبّوه أول الأمر، فحزن على ذلك وضاق صدره، وخرج من بينهم بعد ما أنذرهم عذاب الله،

، ولكن قومه حين غادرهم ورأوا علامات العذاب، ندموا وآمنوا وتضرعوا، وقيل إنهم خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم ونسائهم وأنعامهم، وجأروا إلى الله بالدعاء والبكاء، والاستغفار والتوبة، فكشف الله عنهم غمةَ العذاب؛ فكانت هي القريةُ الوحيدة التي نجت من عذاب الله بعد تحقّقهِ وظهور علاماته ، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾.

أما نبّيُ الله يونس فقد خرج غضبان أسفا، لم يتحمّل صدودَ قومه وتكذيبهم،، وقد عرّض القران بهذا، فقال جلّ وعلا لنبّيه صلى الله عليه وسلم: (فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)،

خرج يونس ظاناً أنه سيجد أرضاً أرحبَ وأوسع، ولم يظن أنَّ الله سيضيّقُ عليه، وأنه سيكون في أضيق مكان، (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) أي نضيق عليه، خرج يونس واتجه إلى البحر،

وركب مع جماعة في سفينة مشحونة، حتى إذا كانوا في عرض البحر، اضطربت بهم الأمواج، فخافوا الهلاك، فقال نبي الله يونس - عليه السلام - كما روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بسند صحيح كما قال ابن حجر: " إِنَّ مَعَهُمْ عَبْدًا آبِقًا مِنْ رَبِّهِ (أي: هارب)، وَإِنَّهَا لَا تَسِيرُ حَتَّى تُلْقُوهُ، فَقَالُوا: لَا نُلْقِيكَ - يَا نَبِيَّ اللَّهِ - أَبَدًا. قَالَ: فَاقْتَرَعُوا؛ فَخَرَجَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ - وهذا معنى قولِ الله سبحانه " فساهم فكان من المدحضين " أي المغلوبين،

قال ابن  كثير : " وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، فَقَامَ يُونُسُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، فأَرْسَلَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ، حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَلَّا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا، وَلَا تُهَشِّمَ لَهُ عَظْمًا؛ فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا، وَإِنَّمَا بَطْنُكَ لَهُ يَكُونُ سِجْنًا " ،

حينها أحاط بنبي الله الكرْبُ، وتغشّاه الغمّ، وهو في بطن الحوت، وقد غشيته ظلمتُه مع ظلمةِ البحر وظلمةِ الليل، نادى ربَّه في هذه الظلمات بلسان الحال والمقال: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾،

حينها أوحى الله جلّ وعلا للحوت ليطرح يونسَ في العراء، (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) عراءٌ قفرٌ من الأشجار، وهو سقيمٌ منهكُ الجسد ، فأنبت الله له اليقطين؛ (فأنبتنا عليه شجرة من يقطين) وهي شجرةُ القرعِ التي تمتازُ بسرعةِ الإنبات، وجودةِ الغذاء وتقويته للجسم، وبتظليل ورقها، ونعومته، وعدم قربان الذباب لها .

وصدق القائل :

وأنت بفضلٍ منك نجيت يونسا

وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليا

فأنبتَّ يقطيناً عليه برحمةٍ

من الله لولا اللهُ أصبح ضاويا

وبعد أن تعافى عاد عليه السلام بعد هذا البلاء؛ فاجتباه ربّه ، وجعله من الصالحين، وأرسله الله إلى قومه بعدد يزيد عن المائة الف ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ \* فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ \* فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ \* فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ \* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ \* وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ \* وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ \* فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين ﴾ [الصافات: 139 - 148].

وفقنا الله للبر والتقوى وأعاننا على العمل الذي يرضى ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه ، إنّه هو الغفور الرحيم .

معاشر المؤمنين

أعظمُ عبرةٍ من قصةِ نبي الله يونس أن الله لطيفٌ بعباده ، إذا دعوه وصدَقوا في التوجه إليه،، "أمّن يجيب المضّطر إذا دعاه ويكشف السوء"، فلا غوثَ إلى من الله ، ولا نجاةَ من الهموم والكروب والظلمات إلا من الله، (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)،

إنه الاعتصام بحبل الله وتوحيده سبحانه،

أما نداءُ الفطرةِ (لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)، فهو أعظمُ نداء، وأعظمُ رجاء وأخشعُ دعاء ،

وفي قصة يونس - عليه السلام - عباد الله بشارةٌ لكل مؤمن مهموم مكروب، يصدق في دعائه والتجائه إلى الله، ويوقن بقرب الفرج منه سبحانه كما قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال صلى الله عليه وسلم: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ"، رواه أحمد وغيره بسند حسن.،

وأخيرا -عباد الله- لئن كان يونس عليه السلام نادى ربه في ظلمات ثلاث : بطن الحوتِ والبحرِ والليل، وهي ظلمات محسوسة، فإن من الناس اليوم من يعيش في ظلمات الجهل والغفلة والهوى والمعصية، ولا منقذ من تلك الظلمات إلا رحمةُ الله، " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)"